العنوان: الإسلام والصليبيون في ساحل أفريقيا الوحشية الصليبية ضد المسلمين أدت إلى نشر الإسلام داخل القارة

المصدر: الوثيقة - البحرين

المؤلف الرئيسي: العراقى، احمد

المجلد/العدد: مج 7, ع 13

محكمة: نعم

التاريخ الميلادي: 1988

الشهر: يوليو - ذو القعدة

الصفحات: 134 - 149

رقم MD: 130015

نوع المحتوى: بحوث ومقالات

قواعد المعلومات: EcoLink, HumanIndex

مواضيع: الحروب الصليبية ، أفريقيا ، الدعوة الإسلامية ، المسلمون ، الحبشة ، المسيحية ، الاستعمار ، أوروبا ، العصور الوسطى ، الاحتلال البرتغالي ، الجهاد

رابط: http://search.mandumah.com/Record/130015

الإسلام والصليبيون في ساحل

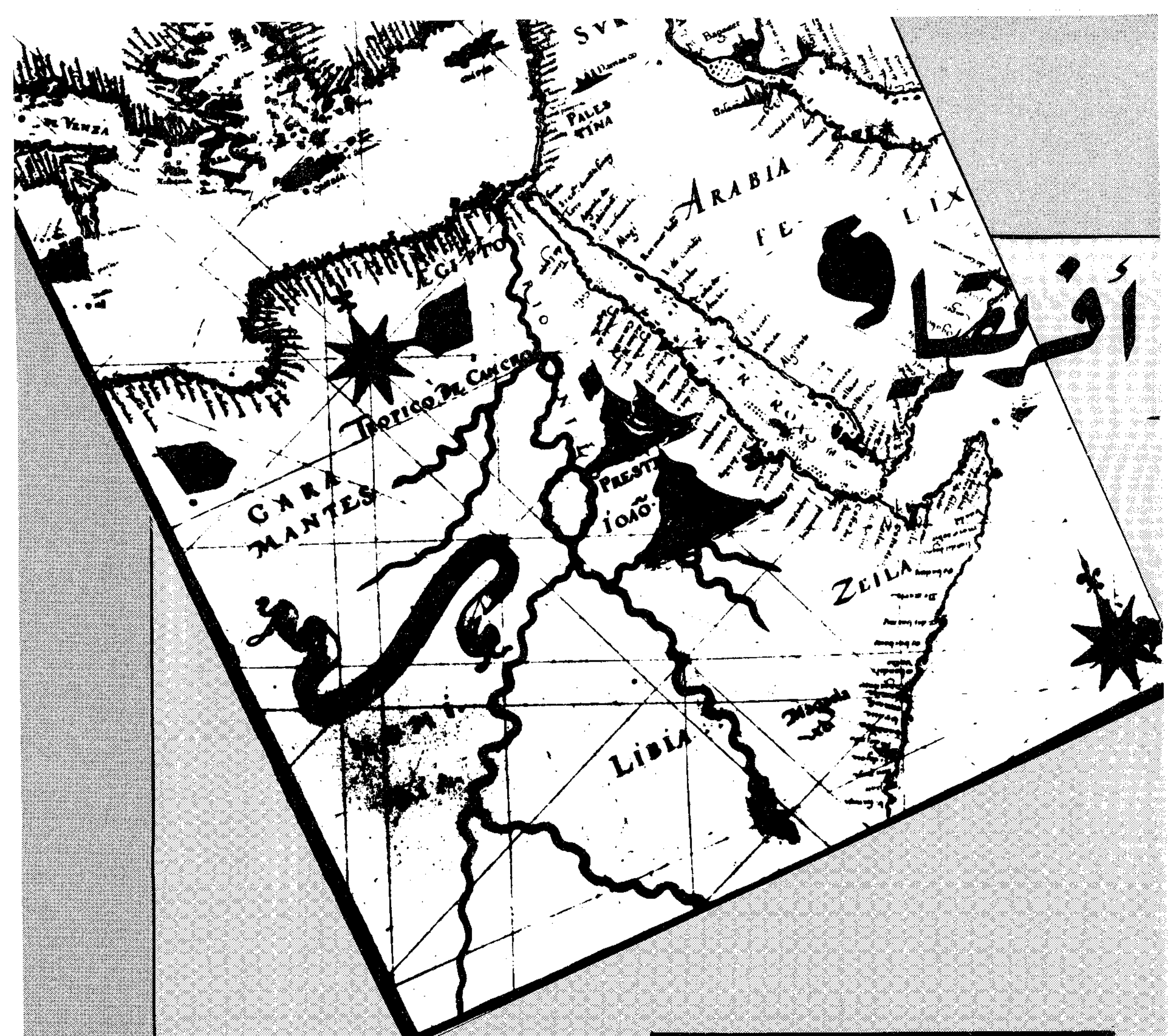
الوحشية الصليبية ضد المسلمين

أدت إلى نشر الإسلام داخل القارة

المقصود بساحل شرقي افريقيا تلك المنطقة التى تحتل مساحة كبيرة تمتد بين خط عرض ٥ شمالا و١٠ جنوبا اى انه يشغل حوالى ١٥ من درجات العرض. والمقصود بساحل شرقي افريقيا فى العصور الوسطى هو ارض الزنج الاسلامية الممتدة من مقديشيو شمالا حتى سوفالا (روديسيا) جنوبا [١] يضاف اليها الحبشة المسيحية ودول الطراز الاسلامى فى منطقة القرن الافريقى، وهى المنطقة التى دخلها الاسلام منذ ان هاجر اليها جعغر بن ابى طالب [٢] وظلت منطقة ساحل شرقى افريقية اسلامية خالصة حتى مجىء البرتغاليين عام ١٤٩٧ م بقيادة فاسكو داجاما .

ونضال المسلمين فى ساحل شرقى افريقيا والحبشة ضد تقدم البرتغاليين وأعمالهم الوحشية ضد المسلمين هو الذى نعنيه بالحروب الصليبية لان البرتغاليين نقلوا معهم الى هذه الجهات كل فظائع الصليبيين التى مارسوها ضد المسلمين فى الشرق الاوسط حول بيت المقدس وغيرها من الامارات الاسلامية فى تلك الجهات حتى ليخيل الى الكثيرين ان مسرح الحروب الصليبية قد انتقل الى شرقى افريقية خاصة وقد دخلت هذا الميدان قوى اخرى جديدة تتمثل فى دولة المماليك فى مصر والشام ومن بعدها الدولة العثمانية التى بسطت سيطرتها على الشرق الادنى والاوسط واستولوا على سواكن وجزيرة زيلع فى مدخل البحر الاحمر الجنوبى

أفريقيا



بقلم : الدكتور

السر سيد. احمد العراقى

وأنشأوا علاقات مع المسلمين فى الحبشة وسواحل شرقى افريقية ونافسوا البرتغاليين فى المحيط الهندى [٣].

على هذا النحو أضحى النضال الاسلامى فى سواحل افريقيا وداخلها صدى للنضال العثمانى ـ البرتغالى او النضال الاوربى فى حوض البحر الاحمر ثم البحر المتوسط بعد ذلك. وبعبارة اخرى فان نضال المسلمين فى سواحل افريقيا الشرقية والحبشة صورة من صور النضال القديم بين الشرق والغرب وهو من جانب آخر امتداد لذلك النضال القديم بين فارس والروم وصداه داخل شبه الجزيرة العربية [٤]. وهو ايضا امتداد للصراع بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى الذى اصطلح على تسميته بالحروب الصليبية. وهى تلك الحروب الاستعمارية التى شنتها اوروبا تحت

اسم الدين، ثم ذلك النضال الذى شمل المسلمين وجمع كلمتهم فى ذلك الوقت خلال القرن الحادى عشر الى نهاية القرن الثالث عشر. وتاريخ الاستعمار الاوربى لافريقيا منذ حركة الكشوف البرتغالية فيها، ملىء بالمآسى، كما انه ملىء بالبطولات القومية الفذة، وهى التى خلدها التاريخ خلال مراحل الكفاح الوطنى .

والحروب الصليبية مرحلة من مراحل الكفاح بين الشرق والغرب بل وهى اهم الفصول فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب. والصراع بين الشرق والغرب قديم ولايزال قائما حتى اليوم. وهو صراع بين مدنيتين مختلفتين وعقيدتين متباينتين وهو من ناحية اخرى دليل على رغبة بعض الناس فى التسلط على البعض الاخر. ومن صور الصراع بين الشرق والغرب ذلك الذى وقع بين الفرس والاغريق قديما. وامتد الى فجر العصور الوسطى، وهو اول مراحل هذا الكفاح. وكما توغل الاغريق فى قلب آسيا زمن الاسكندر الاكبر كذلك توغل الفرس فى قلب بلاد الاغريق ثم كانت حركة الفتوح الاسلامية الكبرى فى العصور الوسطى ووصول المسلمين الى قلب اوروبا.

ثم جاءت حركة الصليبيين فى العصور الوسطى بهدف ظاهرى هو الاستيلاء على ارض الميعاد، لان خطر استيلاء المسلمين على اوروبا ظل ماثلا فى اذهان الاوروبيين. ولذا فالحرب الصليبية من هذه الناحية رد فعل من قبل الغرب ضد ضغط الشرق وبهذا تكون الحروب الصليبية قد حمت اوروبا من توغل المسلمين فترة طويلة اتاحت الفرصة للغرب ان يقوى نفسه وان ينمى مدنيته الى ان نهض الاسلام مرة أخرى من جديد فى العصور الحديثة من ناحية الضغط على اوروبا على ايدى العثمانيين .

وتعتبر الحروب الصليبية ذروة الاحياء الدينى الذى بدأ فى اوروبا اثناء القرن العاشر، وارتفع شأنه خلال القرن الحادى عشر نتيجة لحركة البعث الدينى والاصلاح الذى نهضت به الحركات الديرية. ونظر بعض الاوروبيين من رجال الدين الى الحروب الصليبية على انها حرب مقدسة ووسيلة للخلاص الروحى وغفران الخطايا وانها الطريق المؤدى لنيل السعادة الابدية. واعتبر الحج الى الاراضى المقدسة من اهم الوسائل للتوبة وهو من اعمال التكفير عن الذنوب مثل الصيام والايذاء البدنى .

ومن صور الحروب الصليبية كذلك ما قام فى غرب اوروبا ضد مسلمى الاندلس سواء اكان من ناحية الفرنجة ام من ناحية مسيحيى اسبانيا وكذلك الكفاح الذى قام به النورمان وغيرهم ضد المسلمين فى صقلية وفى جنوب ايطاليا. وقد وعد البابا خلال هذا الصراع ان من يموت

دفاعا عن الصليب سوف يظفر بالخلاص الروحى. وقد بارك البابوات هذا العمل مما كان له أثره الكبير فى استعادة صقلية من ايدى المسلمين وشجع هذا التوفيق على ارتياد منطقة الشرق الاوسط وسواحل افريقية ، لأن البابا كان قد اصدر قرارا بابويا عام ١٤٥٦ يقضى بتقسيم الاملاك بين البرتغاليين والأسبان .

ومن صور الحرب الصليبية فى اوائل العصر الحديث حروب الدول الاوروبية مع العثمانيين والتى اخذت صورة دينية ولا سيما حين تكون حلف مسيحى فى جنوب شرقى اوروبا لمقاومة الزحف العثمانى. وفى اقصى المشرق بجزائر الفلبين كان للمسلمين سلطنة كبرى هى سلطنة بورنيو التى اشتد عليها الصراع بين المسلمين والاسبان فى اوائل القرن السادس عشر وربما كان المستعمرون الاسبان مدفوعين بالحقد على المسلمين الذين كانوا قد استولوا على بلادهم (الاندلس) من قبل. ونظر المسلمون فى جزائر الفلبين الى الحرب ضد الاسبان على انها جهاد فى سبيل الله، وقد دوخوا الاسبان حتى اعترفوا باستقلالهم وذلك فى اوائل القرن التاسع عشر .

والحروب الصليبية التى امتدت نحو قرنين كانت من بعض الاحداث الكبرى التى واجهت المجتمع الاسلامى وكانت أضخم الاحداث بما كان من وقائعها وحروبها وبما كان من اثارها ونتائجها. وسميت هذه الحروب التى خاضتها اوروبا المسيحية ضد المسلمين فى الشرق الاوسط وافريقيا وغيرها من بلاد العالم الاسلامى حروبا صليبية لانها حروب شنتها اوروبا باسم الدين. وفى كل حروب اوروبا ضد المسلمين فى كل مكان حمل الاوروبيون الصليب على صدورهم ونقشوه على اسلحتهم وعلى رؤوس أعلامهم .

اهداف الكشف البرتغالى :

كانت الفكرة الصليبية واضحة فى مشروع الكشف العام للبرتغاليين الذى وضعه هنرى الملاح ابن ملك البرتغال وبدأه بانشاء معهد بحرى فى مدينة ساجر بالبرتغال عام ١٤١٩ وكما ذكر طرخان فقد اوقف هنرى الملاح حياته وجهوده لتنفيذ المشروع العام لحركة الكشف الجغرافى وكان يرمى من وراء هذا المشروع الى هدفين : (٥) .

اولهما : تعقب المسلمين فى شمال افريقيا ونقل الحروب الصليبية الى بلادهم والمعروف عن تاريخ البرتغال ومبدأ تكوينها ان اصول هذا التكوين لم تكن سوى فصل من فصول الحروب الصليبية الدائرة رحاها فى الشرق الاوسط وفى اسبانيا الاسلامية فى وقت معا خلال القرن الثانى عشر. فيذكر عن البرتغاليين انهم انتهزوا

فرصة مرور حملة صليبية متوجهة الى الشرق لتنضم الى جموع الحملة الصليبية الثانية التى اعدتها اوروبا على اثر سقوط امارة الرها الصليبية فى يد عماد الدين زنكى عام ١١٤٤. والمعروف ان امارة الرها هى اول امارة اسلامية يستولى عليها الصليبيون وهى اول امارة كذلك يستعيدها المسلمون عام ١١٤٤. وقد اغرى البرتغاليون هذا الفرع الصليبى المار ببلادهم بأن البرتغال ميدان خصب للحروب الصليبية ولا داعى للرحلة الطويلة الشاقة الى الشرق. وكان هذا الفرع مكونا من جموع الفلمنكيين والفرزيين والفلاندرز والسكندنافيين والالمان والانجليز وقد وافق البعض وتردد البعض الاخر واخيرا تقدموا لمساعدة البرتغال فى حروبها ضد المسلمين فى بلادهم واستطاعوا انتزاع مدينة الاشبونة (لشبونة) الاسلامية بعد حصار دام أربعة أشهر عام ١١٤٧ وذبحوا حاميتها الاسلامية بعد ان امنوها وبعد الانتصار سافر بعض الصليبيين الى الشرق ولكن اغلبهم بقى فى البرتغال والى هذا الحادث يرجع التحالف الطويل الامد بين البرتغال والانجليز. اذن الفكرة الصليبية واضحة فى مشروع هنرى الملاح للكشف والاستعمار .

الهدف الثانى : الوصول الى ذهب السودان عن طريق البحر وتحويل التجارة عن طريق القوافل الى الطريق البحرى والى موانىء المحيط الاطلسى بدلا من موانىء البحر المتوسط على ان هنرى اعلن بعد ذلك انه يريد فتح طريق بحرى الى الهند واماطة اللثام عن لغز مملكة القديس يوحنا وتحويل الوثنيين الى المسيحية ومملكة القديس يوحنا هى احدى الممالك المسيحية التى تحدثت عنها اقاصيص الرحالة فى العصور الوسطى، ولكن لم تحدد هذه الاقاصيص موقع المملكة تحديدا واضحا، ولكن فهم أنها تقع فى مكان ما وسط القارة الافريقية ولما لم يعثر البرتغاليون على طول الساحل الغربي لافريقيا على اثر لتلك المملكة فقد رجحوا ان تكون فى الجانب الشرقى للقارة وربما كانوا يعنون بتلك المملكة دولة الحبشة المسيحية. معنى ذلك ان منطقة افريقيا الشرقية المواجهة للمحيط الهندى كانت تحقق كذلك جميع الاهداف بالنسبة للبرتغاليين. فالامارات التى تنتشر على ساحل افريقيا الشرقى امارات اسلامية، وتخضع لحكومة اسلامية مركزية فى كلوة عاصمة امبراطورية الزنج الاسلامية التى تمتد من مقديشيو شمالا الى سوفالا جنوبا يضاف اليها الممالك الاسلامية الموجودة فى منطقة القرن الافريقى وتناصب الحبشة المسيحية العداء وهى ممالك سبع اشتهرت باسم دول الطراز الاسلامى هذا بجانب ان مناجم الذهب الموجودة فى روديسيا خلف هذه الامارات وقد

ظهر ان العرب يستفيدون من هذه المناجم ثم ان مملكة القديس يوحنا تقع قريبة منها [٦] .

ومن العوامل التى أدت الى نجاح هذا المشروع والاستمرار فيه الى نهايته صدور امر بابوى فى عام ١٤٥٦ يثبت حق البرتغاليين فى امتلاك الارض التى يكتشفونها ويقضى بتقسيم المكتشفات الجديدة بين اسبانيا والبرتغال ويجعل الملاحة ما بين غرب افريقيا حتى الهند احتكارا للبرتغاليين بينما يحتفظ الاسبان بالجزء الغربى من الكرة الارضية .

ويضاف الى تلك الاهداف ان اوروبا المسيحية لم تنس ما لحق بها من هزائم انتهت بطرد الصليبيين من العالم العربى. ومنذ ذلك الحين كانت تسعى حثيثاً لايجاد طريق يمكنها من تطويق العالم الاسلامى من الجنوب والسيطرة على التجارة الشرقية مصدر رخاء الشرق وقوته. وكانت البرتغال بسبب قربها من مسرح الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى اسبانيا ووقوعها تحت تأثير تجارة جنوة اكثر الدول اهتماما بهذا الامر. وحاولت استغلال فكرة الدوران حول القارة الافريقية التى روج لها الجنويون. ومع ان التجارة الشرقية كانت سببا هاما فى القيام بهذه الرحلات الا ان المحرك الاساسى كان دينيا. بل ان بعض المؤرخين يصفون هذه الرحلات بانها موجة جديدة فى سلسلة الحروب الصليبية . وقد اجمل عمانويل الثانى ملك البرتغال (١٤٩٥ ـ ١٥٢١) هذه الدوافع عند وصفه لاسباب رحلة فاسكودى جاما الاولى للهند بقوله : ان الغرض من اكتشاف الطريق البحرى الى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الهند .

احوال المسلمين عند دخول البرتغاليين السواحل الشرقية الافريقية :

منذ تأسيس سلطنة كلوة عام ٩٧٦ م على يد على بن حسن الشيرازى وحتى دخول البرتغاليين الساحل فى نهاية القرن الخامس عشر كانت لهذه السلطنة السيادة والنفوذ على معظم الامارات الساحلية. وخلال تلك الفترة ازدهرت تجارة العاج والرقيق والذهب، ونمت ثروة المراكز التجارية واتسعت المدن وبلغت مستوى راقيا فى الحضارة. ولم تكن كلوة أقوى دول الساحل فقط بل انها كانت اوفرها حضارة وكانت حضارة ذات مظاهر عربية وفارسية. وقد ادخل الشيرازيون اساليبهم فى البناء وفى النقش على الخشب ونسج القطن. وشيدوا عدة مساجد ومبان جميلة ما زالت مخلفاتها باقية الى اليوم. وازدهرت الصناعة والزراعة. واشتهرت كلوة بالنهضة الادبية والعلمية [٧] .

إلا ان هناك عدة عوامل عجلت بسقوط هذه الامبراطورية العظيمة. وقد بدأ الافول السياسى لها منذ نهاية القرن الخامس عشر. ولم يكن هذا الافول نتيجة ظهور البرتغاليين فى شرق افريقيا فحسب، بل كانت هناك عملية تدهور مستمر لهذه الامارات منذ مطلع القرن الخامس عشر تقريبا، ومن اهم العوامل التى اضعفت هذه الامارات تنازعها فيما بينها على السيادة والنفوذ وذلك بجانب الانقسام الداخلى فى حكومة كلوة المركزية فقد اشتد بحيث اصبح سلاطين كلوة الاواخر مسلوبى السلطة والنفوذ وهذا بجانب ضعف الروح العسكرية وتفكك القوات. لذلك كانت أحوال العرش فى كلوة عند ظهور البرتغاليين فى شرق افريقيا فى حالة يرثى لها. فالثابت ان عرش كلوة قد اصابه التصدع والانهيار عقب وفاة السلطان ابى المواهب (١٣٠٨ ـ ١٣٣٤) الذى يعتبر من اعظم سلاطين امبراطورية الزنج نفوذا وقوة. وقد زار بلاطه الرحالة المعروف ابن بطوطة عام ١٣٣٣ م وشهد بأن عصره يمثل العصر الذهبى لسلطنة الزنج الاسلامية (٨). وبوفاة هذا السلطان العظيم بدأ يخيم الظلام ويعم التدهور والانحلال فى جسم الامبراطورية اذ حكم فى كلوة سلاطين ضعاف ساعدوا بضعفهم على انهيار هذه الامبراطورية العظيمة . وكانت السلطة الفعلية فى البلاد تحت ايدى الوزراء والامراء الذين كانوا اكثر ثراء ونفوذا واستطاعوا بنفوذهم وقبضهم على ناصية الامور إقصاء السلاطين واستبدال آخرين بهم. ومحمد كيواب هو اشهر هؤلاء الوزراء نفوذا واستبدادا. وهذا يشبه الى حد كبير حجاب القصور فى اواخر الدولة الميروفنجية، ومن نوع صناع الملوك الذين ظهروا فى القرن الخامس الميلادى فى الشطر الغربى من الامبراطورية الرومانية. لذلك عندما وصل البرتغاليون الى ساحل افريقيا الشرقى لم يجدوا سوى بلاط ممزق وقوة عسكرية ضعيفة فضلا عن عدم اتحاد الامارات ووقوفها قوة واحدة.

ولعل للعامل الجغرافى اثره فى ان امبراطورية كلوة هذه لم تكن امبراطورية موحدة من نوع الامبراطوريات القديمة او الامبراطورية الاسلامية، وانما كانت امبراطورية من نوع امبراطوريات العصور الوسطى الغربية وابرز هذه الامبراطوريات شبها بها الامبراطورية الانجوفية فى القرن الثامن عشر، التى كانت املاكها موزعة بين القارة الاوربية فى فرنسا وبين الجزر البريطانية المنعزلة عن قارة اوروبا . اى انها لم تكن امبراطورية بالمعنى الصحيح (٩).

وهذا ما يسر مهمة البرتغاليين فى القضاء على عناصرها الممثلة فى الامارات كل امارة على حدة، دون ان تنهض الاخرى وتنضوى تحت لواء

السلطان الاكبر لمقابلة البرتغاليين قوة واحدة، حقيقة حدث ان تحالفت بعض الامارات معا ضد البرتغاليين، لكن بعد ان فات الاوان وبعد ان سيطر البرتغاليون على شرقى افريقيا، وشنوا حربا متصلة ضد مسلمى الساحل وقد بدأت فترة من الصراع العنيف بين البرتغاليين واهالى المدن الاسلامية الساحلية. فقد هاجم هؤلاء كلوة وممبسة وزنجبار وبدأوا اعمال القرصنة ضد مقديشيو وبراوة. وهكذا نرى ان البرتغاليين يشنون حروبا صليبية ضد المسلمين فى شرقى افريقيا ومن المدهش حقا ان من نتائج الحملة الوحشية ان انتشر الاسلام لأن المسلمين تركوا الساحل امام نيران المعتدين ولجأوا الى الداخل حيث اختلطوا بالقبائل فازداد انتشار الاسلام (١٠) .

بدأ البرتغاليون فى ارسال اساطيل ضخمة الى المحيط الهندى. وفى الفترة ما بين ١٥٠٠ ـ ١٥٠٩ سيطروا على معظم ساحل شرقى افريقية وأسسوا عددا من المستعمرات. وقد نجحوا ليس فقط فى اخضاع امبراطورية الزنج بل اخضعوا البلاد التى حول الخليج بما فيها مدن هرمز ومسقط بالاضافة الى اجزاء من سيلان كما ضموا ملقا ومجموعة جزر الملايو وكثيرا من المناطق والمراكز المنتشرة حولها .

البرتغاليون وحركة الجهاد فى شرقى افريقيا :

وصل البرتغاليون الى مالندى (في كينيا الان) وكان على رأسهم فاسكودى جاما وقد وجدوا ثغرة خطيرة فى مالندى وهى خيانة حاكمها الذى اراد ان يتخلص من تبعيته لسلطان كلوة فارتمى فى احضان الغزاة وقدم لهم جميع انواع المساعدة التى يحتاجون اليها، وكان حاكم مالندى يتمنى ان يجد فى فاسكودى جاما الحليف والصديق ضد امارة ممبسه الاسلامية اذ كانت مالندى فى صراع عنيف مع جارتها اللدود ممبسه منذ ان جعل علي بن حسن مؤسس امبراطورية الزنج مالندى امارة تابعة لمبسه وقد طلب داجاما من حاكم مالندى ان يساعده بمرشد ماهر فى الملاحة الى الهند فامده بالملاح العربى النجدى واسمه شهاب الدين احمد بن ماجد السعدى وكان ابن ماجد ينحدر من أسرة خبيرة بفنون الملاحة. وامده حاكم مالندى كذلك ببعض الملاحين العرب والهنود. وفى خلال هذه الرحلة تأكد لداجاما اهمية ساحل شرقى افريقيا بالنسبة لامبراطورية البرتغال، واحتكار تجارة التوابل بين الشرق الاقصى واوروبا واحتكار ذهب شرقي افريقيا لان التجار فى الهند كانوا لا يبيعون الا بالذهب .

كانت ممبسه من اكثر الامارات الساحلية التى حاربت البرتغاليين لدرجة ان لقبوها باسم (جزيرة الحرب) لانها كانت شوكة فى ظهورهم وقاومتهم بكل بسالة وشجاعة من اجل المحافظة على تقاليدها وتراثها العربى الاسلامى. وخلال المائتى سنة التى قضاها البرتغاليون على الساحل كانت ممبسه هى المصدر الرئيسى للثورات والعصيان على سيطرة البرتغاليين وسيادتهم على الساحل الا ان السلاح النارى كان العامل الحاسم فى المعارك وتغلب على الشجاعة والاسلحة البدائية وكان عامل قوة ممبسه وصمودها يكمن فى ازدهار تجارتها وامكانياتها المادية الهائلة. وقد اثبتت كل التقارير انه كان لدى ممبسه عند ظهور البرتغاليين على الساحل مخازن وكميات ضخمة من الذهب والفضة والعاج والاحجار الكريمة والاقمشة الهندية والفارسية وكميات وفيرة من الارز والعسل والدواجن بالاضافة الى قطعان الماشية والضأن وكانت تجارتها مزدهرة مع سوفالا وكل امارات ساحل شرقى افريقيا الاخرى، بالاضافة الى دول البحر الاحمر والخليج العربى والهند. (١١) .

نظم شيخ ممبسه المقاومة من العرب والافريقيين وانتظمت الجميع روح المقاومة التى امتدت الى زنجبار وبمبا وكلوة ومقديشيو التى اضطر البرتغاليون الى ضربها بالمدافع، وقاومت مقديشيو جميع المحاولات التى بذلها البرتغاليون لاخضاعها لانها تمتعت بمناعة أسوارها وحصونها، واشتهرت بثروتها الضخمة وكثرة عدد سكانها لذا كانت مركزا للمقاومة وظلت تناصب البرتغاليين العداء طوال مدة اقامتهم على الساحل (١٢) .

تمكن البرتغاليون من كسر شوكة المقاومة بفضل السلاح النارى الذى يمتلكونه. وعندما خلا الميدان لهم انتزعوا التجارة البحرية من العرب وتفرغوا لتنظيم شئونهم فى الساحل الشرقى الافريقى وقرروا منذ البداية الاكتفاء بالاستيلاء على المنافذ البحرية كشرط ضرورى لضمان التفوق البحرى. وقسم البرتغاليون الامبراطورية الى أربع مجموعات من المحطات البحرية لكل منها حاكم يعينه نائب الملك فى الهند الذى اتخذ مقره فى جوا بالهند، وهذه المجموعات هى ساحل شرقى افريقيا . وهرمز وتوابعها على ساحل العرب . وجزيرة سيلان . وملقا. وفيما يختص بشرقى افريقيا، فقد ارتكز البرتغاليون على القسم الجنوبى من الممتلكات العربية الاسلامية بسبب اعتدال المناخ وقرب مناطق الجنوب من مناجم الذهب الداخلية. وفيما يتعلق بالمناطق الشمالية اكتفوا بالاعتماد على محالفة حكام مالندى الذين كانوا يتلقون من البرتغاليين معونة عسكرية (١٣) .

أبدت اليمن ومصر اهتماما شديدا بالغزو البرتغالى ولكن امكانياتهما البحرية كانت ضئيلة فالدولتان لا تملكان اسطولا حربيا يقوى على مواجهة الخطر البرتغالى. وفى عام ١٥٠٧ غامر السلطان عامر بن عبدالوهاب الذى كان مشغولا ببعض الفتن الداخلية بحملة واحدة مكونة من اربع عشرة سفينة وستمائة مقاتل بعضهم من الطلاب المتطوعين ضد البرتغاليين فى الهند ولم يعرف شىء عن مصير تلك الحملة. ومن قبلهم سعى المماليك لمواجهة البرتغاليين لفك الحصار الذى فرضوه على السفن والتجارة العربية فى المحيط الهندى وتلبية لاستنجاد ملك اليمن بهم (١٤) وكانت خطتهم تقوم على تقوية الحكم المملوكى فى البحر الاحمر وسواحله بما فى ذلك ميناء جده وبخاصة بعد ان اعلن البرتغاليون عزمهم على مهاجمة الحرمين الشريفين وتخريبهما وفى سنة ١٥٠٥ بعث السلطان قنصوه الغورى باسطول حربى بقيادة حسين الكردى فشيد تحصينات جيدة فى ميناء جدة لرفع كفاءتها القتالية ثم استولى على سواكن وزار بعض الموانىء اليمنية ثم عدن ثم خرج لمواجهة البرتغاليين حيث اصطدم بهم امام ديو وتمكن بمعاونة بعض الامارات الهندية من احراز نصر جزئى لم يدم طويلا اذ حلت الهزيمة به فى فبراير سنة ١٥٠٩ فانسحب الى البحر الاحمر تاركا المحيط الهندى تحت سيطرة البرتغاليين الذين زادت جرأتهم (١٥).

ولما تكررت الاعتداءات البرتغالية على البحر الاحمر استنجد قنصوه الغورى الذى كان يعد العدة لمواجهة اخرى مع البرتغاليين فى الهند بالسلطان العثمانى بايزيد الثانى (١٤٨١ ـ ١٥١٢) يطلب منه مده بالاخشاب والعتاد فامده با يزيد بما يحتاج اليه هدية مضافا اليه نحو الفين من البحارة بقيادة سلمان الويس للمساعدة فى تشييد السفن والمشاركة في حملة الهند (١٦).

وبدخول العثمانيين القاهرة فى ١٣ ابريل ١٥١٧ طويت صفحة عن عهد رائع من انبل العهود الاسلامية كللت فيها مساعى المماليك بالنصر على المغول والصليبيين ولكنها اخفقت فى رد عادية البرتغاليين وورث العثمانيون دولة المماليك وتبنوا سياستها فى مواجهة الخطر البرتغالي والدفاع عن البحر الاحمر وحماية الحرمين الشريفين (١٧).

تفرغ العثمانيون فى عهد السلطان سليمان القانونى الى بلاد الشرق الاوسط وافريقيا فتمكنوا من انتزاع العراق من الصفويين عام ١٥٣٤ وبذلك اصبح العراق ولاية عثمانية خاضعة للسلطة المركزية فى القسطنطينية. وقد سعى الصفويون كثيرا لاسترداد العراق من العثمانيين وتمكنوا بالفعل من الاستيلاء على

بغداد فيما بعد فى عام ١٦٠٢ الا ان حكمهم الجديد لم يستمر طويلا اذ تصدى لهم السلطان مراد الرابع ودحرهم وافتتح العراق مرة ثانية عام ١٦٣٨. وتابع العثمانيون مجهوداتهم لبسط سيادتهم على سائر اجزاء شبه الجزيرة العربية كاليمن وسواحل البحرين وعدن ومسقط وكان هدفهم الاساسى هو حماية الاماكن المقدسة بالذات من عبث البرتغاليين وغاراتهم المتكررة. وبالرغم من مجهودات العثمانيين الكبيرة لمحاربة البرتغاليين واسقاط نفوذهم التجارى فى شرق افريقيا وتحطيم التطويق البحرى الذى احكموه على الطريق التجارى الى مصر والمنطقة العربية الا انهم عجزوا تماما عن طرد البرتغاليين من الخليج العربى، وضرب نشاطهم فى المحيط الهندى، كما فشلت جهود المماليك فى تحقيق ذلك من قبل. واخيرا فقد لقى الاسطول العثمانى هزيمة ساحقة من الاسطول البرتغالى فى جزيرة ديو عام ١٥٣٨ [١٨].

ورغم فشل العثمانيين فى تحطيم الحصار الاقتصادي الذى فرضه البرتغاليون على المنطقة العربية، الا انهم استطاعوا ان يخففوا الضغط على التجار العرب والموانىء والامارات العربية الساحلية فى عمان ومسقط والخليج العربى. كما انهم تمكنوا من احباط كل المحاولات لتكوين جبهة مسيحية من البرتغاليين والاحباش ضد القوى العربية الاسلامية فى البحر الاحمر وشرقى افريقيا [١٩].

بهذا الوضع بدأ البرتغاليون منذ ايام السلطان سليمان القانونى يواجهون قوة اسلامية كبرى، وهى قوة العثمانيين الذين بسطوا سيادتهم فى هذه الاثناء على سواحل البحر الاحمر واستولوا على سواكن وجزيرة زيلع وانشأوا علاقات مع المسلمين فى مصوع التى يحتلها البرتغاليون واسسوا فى كل منها ديوانا للجمارك لتنظيم تجارتهم. وجاء استيلاء العثمانيين على هذه المناطق فى الساحل الافريقى مصدر قلق وخطورة على المسلمين والأحباش على السواء. فقد عرفت القوتان المتناحرتان ان الغزاة الجدد يتسلحون باسلحة نارية ومدافع ولن تستطيع احداهما مقاومتهم غير أن المسلمين وجدوا عاملا هاما للارتباط مع الفاتحين الجدد وهو عامل الاتفاق فى الدين فضلا عن ترحيب العثمانيين بهذا الارتباط الدينى بجانب الاهداف التجارية ولدى المسلمين بالحبشة معلومات وافية عنها. اما الحبشة فكان الامر مختلفا بالنسبة اليها فهى مسيحية متعصبة لمسيحيتها وليس هناك ادنى احتمال لامكان استعداء الاتراك على المسلمين الاعداء اذن لا بد من محاربة مسلمى الحبشة واحلافهم الجدد لكن اسلحة الاحباش لم تزل حتى ذلك الوقت هى

القوس والنشاب والسيف والاعتماد على الشجاعة والفروسية ونحو ذلك وهذه لا تجدى فتيلا امام الاسلحة الحديثة آنئذ اذن لا بد من عون خارجى متفوق فى التسلح والنظام على العدو الاقوى كما يتفق مع الاحباش فى العقيدة .

حينئذ رأت الملكة هيلانه العجوز الوصية على لبناد (١٥٠٨ ـ ١٥٤٠) ان المخرج الوحيد هو الاستعانة بالدول الاوروبية استعانة جدية فعالة فحين سمعت بانتصارات البرتغال فى المحيط الهندى طلبت مساعدتهم ومن ثم توالت البعثات الحبشية الى اوروبا منها ما كان للبرتغال ومنها ما كان للبابا فى روما [٢٠] .

كان دافع (هيلانه) الحقيقي لارسال هذه البعوث الى اوروبا هو املها فى الحصول على مساعدات مسيحية لوقف نشاط مملكة اوفات الاسلامية اكبر دول الطراز الاسلامى فى القرن الافريقى ومن البديهى ان يرحب الاوروبيون باقامة علاقات مباشرة مع مملكة (القديس يوحنا) فقد يمكنهم هذا التحالف من ضرب الحركة الاسلامية فى شرقى افريقيا وتطويق العالم الاسلامى من الجنوب وايجاد مراكز بحرية لهم فى داخل البحر الاحمر لمهاجمة الحجاز ومصر ومن جانب اخر فان هذا التحالف المسيحى قد اقض مضجع العثمانيين الذين كانوا فى غضون ذلك فى صراع من اجل السيطرة والهيمنة على الطريق التجارية البحرية فاقاموا اتصالهم مع مملكة اوفات الاسلامية وذلك لافساد الخطة الصليبية واقتضت مصلحة التحالف والتعاون مع المسلمين فى دول الطراز الاسلامى فى الحبشة تزويدهم بالمعدات الحربية والتأييد المعنوى وانقذهم ذلك من خطر ماحق [٢١] .

توالت المساعدات العثمانية لمملكة اوفات وازدادت فى عهد المجاهد الكبير احمد بن ابراهيم الجران (الأشول) وذلك لاجهاض حركة التعاون الحبشى البرتغالى الذى ظهر انه يهدد النفوذ العثمانى فى البحر الاحمر ويهدد الحرمين الشريفين اللذين دخلا فى نطاق الدولة العثمانية. وبفضل المساعدات العثمانية المستمرة تمكن المسلمون من فتح معظم الاراضى الحبشية. وتمكنت مملكة أوفات من توسيع الرقعة الاسلامية ونشر الاسلام في داخل الهضبة الحبشية [٢٢]

على هذا النحو اضحى النضال الاسلامى داخل افريقيا صدى للنضال العثمانى البرتغالى او النضال الاوروبى فى المحيط الهندى والبحر الاحمر ثم البحر المتوسط بعد ذلك. او قل إن نضال الممالك الاسلامية فى شرق افريقية والقرن الافريقى ضد الحبشة أصبح صورة من صور النضال المزمن بين الشرق والغرب وهو

من جانب آخر امتداد لذلك النضال القديم بين العرب المسلمين وأوروبا وصداه داخل الجزيرة العربية .

استمرت سيادة البرتغال على معظم ساحل شرقى افريقية حتى القرن الثامن عشر وعند ذلك تخلص العرب من الحكم البرتغالى وذلك على يد عرب عمان الذين تمكنوا من طرد البرتغاليين من هذا الساحل وتأسست سلطنة عمان فى زنجبار على يد السلطان السيد سعيد (١٨٠٦ - ١٨٥٦) وحكمت هذه السلطنة الساحل الشرقي لافريقيا واصطبغت المنطقة بالصبغة العربية التى كانت لها من قبل وعادت جميعها للحكم العربى الاسلامى ما عدا موزمبيق التى ظلت مستعمرة برتغالية. واستمرت السيادة لعرب عمان على معظم اجزاء افريقيا الشرقية حتى زوالها ببداية التدخل الاوروبى فى القرن التاسع عشر. واصبح شرقى افريقيا محط انظار الاوربيين لمناخه المعتدل ومما شجعهم كذلك نشاط البعثات التبشيرية الكنسية فاستطاعت فرنسا ان تمد نفوذها الى تنجانيقا واستأثرت المانيا بمناطق كثيرة الا ان املاكها صفيت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وتحولت شرقى افريقيا الالمانية الى تنجانيقا البريطانية. وتأسست شركة جنوب افريقيا فاعلنت بياسا لاند محمية بريطانية بينما تركت روديسيا الجنوبية والشمالية فى يد الشركة البريطانية حتى تحولت الاولى الى مستعمرة عام ١٩٠٣م ومنحت حق الحكم الذاتى. اما روديسيا الشمالية فقد اتحدت اجزاؤها سنة ١٩٢٤ ثم اتحدت هذه الاقاليم الثلاثة سنة ١٩٥٣ .

واستمر الصوماليون يكافحون التدخل الاجنبى والمد المسيحى الصليبى ولكن ما أن انتصف هذا القرن حتى بدأت الحركات الوطنية تؤتى ثمارها وتم الاستقلال .

ولم تتوقف، الهجمات الصليبية الشرسة المتمثلة فى التدخل الاوربى الاستعمارى وابرز ما يتمثل ذلك فى هجمات اثيوبيا المتكررة على الصومال العربى والمساعدات الاثيوبية المتواصلة لاعداء الثقافة العربية والفكر الاسلامى فى جنوب السودان .

★★★★★

الهوامش

(١) انطونى سلوى (ترجمة) ، أفريقيا الجغرافية الاجتماعية ص ١٥ . الدناصورى ، جمال الدين ، جغرافية أفريقية واستراليا ص ٧٠ . القاهرة ١٩٦٨ .

(٢) ابن الأثير ، أبو الحسن على بن الكرم بن محمد الشيبانى ، (ت ٦٣٠ هـ ١٢٣٣ م) الكامل فى التاريخ جـ ٢ ، ص ٥١ . أبو الفدا عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢، هـ/١٣٣٢ م ، المختصر فى تاريخ البشر . جـ ١ ، ص ١٨ ، القاهرة .

(٣) طرخان : ابراهيم على : الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة فى العصور الوسطى ، ص ٦٦ وما يليها ، مستخرج من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد الثامن ، القاهرة ١٩٥٩ .

(٤) طرخان : نفس المرجع ، ص ٦٨ .

(٥) طرخان : البرتغاليون فى غرب أفريقيا ص ٢٢ وما بعدها ، مستخرج من مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد الخامس والعشرون ، الجزء الأول ـ مايو ١٩٦٣ ، القاهرة ١٩٦٧ .

(٦) طرخان : البرتغاليون فى غرب أفريقيا ص ٢٣ .

(٧) الشيخ محي الدين ، كتاب السلوة فى أخبار كلوة .

(٨) ابن بطوطة أبو عبد الله على محمد بن عبد الله اللواتى الطنجي (ت ٧٧٩ هـ/١٣٦٩ م) : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار القاهرة ١٣٢٢ ص ١٩٤ .

(٩) الامبراطورية الانجوقية : نواتها دوقية نورمانديا بشمالى فرنسا ويرجع قيام هذه الدوقية الى عام ٩١١ زمن شارل البسيط من أواخر الملوك الكارولنجيين ، فقد منح النورمان هذه المنطقة اتقاء لشر غزوهم . اتسعت هذه الدوقية تدريجا وفى القرن الحادى عشر فتح الدوق وليام الفاتح انجلترا عام ١٠٦٦ م . ثم توسعت حتى شملت فى زمن هنرى الثانى فى القرن الثانى عشر الميلادى كونتيه انجو ومين وبلوا ودوقيه أكوتين وعرفت بهذا الاسم نسبة الى كونتيه انجو التى كان يحكمها أبوهنرى الثانى . وتضم الامبراطورية

الانجوقية كذلك : انجلترا ـ بعض أجزاء من ايرلندا ـ السيادة على استكلندا ـ وفى فرنسا : نورماندیا واكوتين وانجو ومين وبلوا .

(١٠) حمدى السيد ، الصومال ، ص ٤٨٩ ـ ٤٩١ ، مقديشو ١٩٦٥ .

(١١) صلاح العقاد ، جمال زكريا قاسم ، زنجبار ، ص ٢٦ ، القاهرة ١٩٥٩ .

(١٢) ابن الديبع ، عبد الرحمن بن على بن عمر الديبع ، الفضل المزيد على بغية المستفيد مخطوط ، دار الكتب المصرية ، رقم ١١ تاريخ ورقة ٣٨ ، ابو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله . (٨٧٠ هـ ٩٤٧/١٤٦٥ ـ ١٥٤٠ م) قلادةالنحر فى وفيات اعيان الدهر ، جـ ٣ تحقيق ودراسة محمد عبد العال احمد ، الاسكندرية ١٩٧٣ ، ص ٩٩ . نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٤٤ .

(١٣) زنجبار ، ص ٢٢ .

(١٤) أبو شامة ، عبد الرحمن بن اسماعيل ، الروضتين فى أخبار الدولتين (بدون تاريخ) ، جـ ٢ .

(١٥) محمد زغلول عبد ربه ، البرتغاليون فى البحر الأحمر (ندوة البحر الأحمر ، عين شمس ، القاهرة ، عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى المجلة المصرية التاريخية ، المجلد ١٤ ز ١٩٦٨) ١ ـ ٤٣ .

(١٦) عبد الرحيم عبد الرحمن : النشاط والتجارة فى البحر الأحمر فى العصر العثمانى ١٥١٧ ـ ١٧٩٨ ، ندوة البحر الأحمر ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٩ .

(١٧) محمد أحمد أنيس : الدولة العثمانية فى الشرق العربى ، القاهرة (بدون تاريخ) . محمد أمين صالح ، تجارة البحر الأحمر فى عصر المماليك الشراكسة ، ندوة البحر الأحمر ، عين شمس ، ١٩٧٩ .

(١٨) ديو مرفأ تجارى هام على الساحل الغربى للهند : انظر السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨ ـ ١٦٣٥) القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٦٠ .

(١٩) راشد البراوى ، الصومال ، ص ٢١ ، القاهرة ١٩٦١ .

(٢٠) السيد مصطفى ، المرجع السابق ، ص ٦٨ .

(٢١) قلادة النحر ، جـ ٢ ، ص ١١١ ـ ١١٣ ، ١٢٣ ـ ١٢٥ . يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد ، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى تحقيق وتقديم سعيد عاشور ، القسم الثانى ، القاهرة ١٩٦٨ .

(٢٢) الامام أحمد بن جرا (الجران) كلمة جرا أو جر الصومالية : اليد اليسرى ، وجرا معناها الأشول أو الأعسر ، انظر : عرب فقيه ، شهاب الدين احمد بن عبد القادر الجيزانى ، تحفة الزمان أو فتوح الحبشة حققه فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٢١٩ .